المنزع التربوي للإمام الشاطبي في ضوء إسهاماته في تصنيف العلوم.

د/ زبيدة الطيب: أستاذ محاضر أ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الندوة الوطنية حول: الفكر التربوي بين التراث الكلامي والصوفي

تنظيم: مخبر الدراسات العقيدية ومقارنة الأديان بالتعاون مع كلية أصول الدين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بتاريخ: 10 جانفي 202

الملخص

تتقصد الورقة البحث في التراث المعرفي للإمام الشاطبي، والذي يتجاوز معارفه في علم أصول الفقه والمقاصد إلى تصنيف العلوم؛ بغرض الوقوف على منزعه التربوي الذي يبدو في مفهومه للعلم من حيث التعريف والوسائل وربط العلم بالعمل، كما يظهر في التركيز على المقاصد التعبدية لطلب العلم وغيرها من الإشارات.

This paper intends to research the epistemological heritage of Imam Al-Shatibi, which goes beyond his knowledge in the science of the principles of jurisprudence and purposes to the classification of sciences; In order to stand on his educational tendency, which appears in his concept of science in terms of definition, means, and linking knowledge to work, as it appears in focusing on the devotional purposes of seeking knowledge and other signs.

مقدمة

يعرف الإمام الشاطبي في غالبية الأوساط العلمية الأكاديمية، والدراسات الإسلامية بأنه الأصولي الثابت وإليه يرجع الفضل في وضع الأسس الأولى لعلم المقاصد. كما أن إسهاماته في تصنيف العلوم لا تقل أهمية عن تلك التي تبرز في مجالي أصول الفقه والمقاصد.

وتظهر إسهاماته المتميزة في تصنيف العلوم؛ ليس في تجاوزه الاتجاه التقليدي، الذي يغلب عليه الاتجاه اليوناني فحسب، بل في تلك الإشارات التربوية الرصينة التي تبدو في مفهومه للعلم من حيث التعريف والوسائل وربط العلم بالعمل، كما يظهر في التركيز على المقاصد التعبدية لطلب العلم وغيرها من الإشارات؛ التي تظهر المنزع التربوي للإمام الشاطبي.

إن ما سبق عرضه يطرح علينا إشكالا نراه جديرا بالبحث وهو: **إلى أي مدى يمكن اعتبار إسهامات الشاطبي في تصنيف العلوم هي في الوقت نفسه إسهامات للفكر التربوي الإسلامي عموما؟** تلك هي الإشكالية التي أتقصد معالجتها في ملتقاكم الموقر، ولذلك اخترت أن تحمل المداخلة عنوان: المنزع التربوي للإمام الشاطبي في ضوء إسهاماته في تصنيف العلوم.

أولا- المنزع التربوي:

إن الحديث عن موضوع التربية في علم تصنيف العلوم؛ يعني مبدئيا حضورها ضمن العلوم الإسلامية ومعارفها، وهو ملمح جوهري في الاعتراف بها في درس العلوم الإسلامية؛ وهو ما يجب لفت الانتباه إليه في ضرورة أن تكون التربية وعلومها من ضمن المقررات الدراسية في كل العلوم والتخصصات الإسلامية في المفردات والبرامج الموجهة للطلبة؛ إذ التربية لم تكن غائبة في يوم من الأيام عن العلوم الإسلامية وعن علماء الإسلام من جانب التطبيق والممارسة، كما أن لم تكن غائبة عن بعضهم من جانب التنظير والتأصيل. ومنهم الإمام الشاطبي، وهو عالم المقاصد والأصولي المتميز، الذي لم تخل نصوصه في تصنيف العلوم من إشارات وتنبيهات في التربية؛ أطلقت عليها تعبير منزع تربوي.

لماذا الشاطبي؟ ارتباط الشاطبي بالمقاصد ربما يشي بنوع من النزوع المادي في فهم النصوص القرآنية ونصوص السنة؛ أي فهم مرتبط بالمصلحة يذهب إلى حد تشييء الأحكام الشرعية وتسليع الإنسان، وهذا هو الفهم الذي جر بعض الحداثيين إلى تبني فهم الشاطبي للمقاصد، وأدى بهم إلى محاولات تفسيرية لبعض النصوص؛ تفسيرا يبتعد كثيرا عن الشريعة لفظا وروحا. كما أن ارتباطه بالمقاصد عند طلبة العلم في الشق الإسلامي، ربما غيب جانبه التربوي؛ فأضحت المقاصد كأنها قواعد وقوانين جامدة بلا روح.

والحقيقة التي لا تخطئها القراءة والبحث؛ تظهر أن المقاصد عند الشاطبي لم تكن منبتة أو مقطوعة عن المقصد التربوي والروحي الكامن في النصوص، والذي يظهر لنا في الموافقات التي تتضمن رؤيته وفلسفته في تصنيف العلوم، والتي سميناها منزع.

وأما المقصود بالمنزع التربوي؛ فإن السياق يقتضي تعريف لفظة المنزع في اللغة؛ التي تعود إلى الفعل نزع؛ أي حوَّل الشيء عن موضعه، ونزع بمعنى جذب، ونزع فلان إلى أبيه أي ذهب إليه في الشبه؛ كذلك يذهب العالم في علمه إلى ما يشبه خلفيته وما له علاقة بها وطيدة بها؛ فهو ينزع إليها؛ ففيه معنى الميل والانجذاب نحو الأصل والرجوع إليه.[1]

ويظهر أن ثمة علاقة ما بين المعنى اللغوي وبين استعماله في هذا المقام؛ إذ إن تصنيف العلوم هو علم قائم بذاته. غير أن صياغة الشاطبي لهذا العلم ومنهجه في تصنيف العلوم؛ نلمح فيها انجذابا نحو التربية ومقاصدها في الشريعة، وانجذابا إلى الخلفية الإسلامية التي تحكم علماء الإسلام والمشتغلين بعلوم النص القرآني عموما سواء كان فقها أم اصولا أم كلاما أم غيرها من المعارف والعلوم؛ ما يؤكد ما صدرنا به الكلام، وهو حضور التربية في العلوم الإسلامية.

وأما المعنى الاصطلاحي؛ فإن المنزع والنزوع؛ يأخذ معنى المذهب أو الاتجاه. وهو ما لا ينطبق على المراد في منزع الشاطبي التربوي من خلال منهجه في تصنيف العلوم، إننا لا نعني به مذهبا أو اتجاها؛ بقدر ما هو روح تسري في مصنفاته ونصوصه الثاوية في مؤلفاته في تصنيف العلوم. وهذا يعطي مبررا لاختيار العنوان؛ إذ الحديث لا عن رؤى ونظريات، وإنما عن فلسفة كامنة في نصوص الشاطبي، خاصة ما تعلق منها بتصنيف العلوم، تتوجه إلى المسلم من حيث كونه إنسانا؛ يحمل العلم الشرعي، وإعداده روحيا وقيميا ومعرفيا من منطلق أن " بناء الفكر التربوي الإسلامي لا يختص بالعلوم والمعارف نفسها وحسب، وإنما يختص كذلك بالطريقة التي يكتسب فيها المسلم هذه المعارف، وأساليب اختبارها وميادين توظيفها." [2] ما يعني أن المقال يتقصد بيان أحد مستويات العملية التربوية، ونقصد به التربية الفكرية، والتي يعني أن مقصودها هو البحث في كيفية حمل الفكرة التربوية وتوظيفها.

وأما مصطلح التربية والتربوي؛ كتوصيف عند الشاطبي؛ فإننا لا نعني به جملة القواعد والنظريات المعتمدة في التنشئة والتوجيه؛ بقدر ما نعني به تلك الروح المستمدة من الكتاب والسنة، والتي تسري في نصوص الشاطبي وترتفع بالإنسان، وتجعل المقاصد ليست مقاصد لذاتها؛ بقدر ما هي

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ج8، ص 349_352)

[2]- فتحي حسن الملكاوي، نحو حضور فاعل للرؤية الإسلامية في الإصلاح التربوي المعاصر، إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، ع 98، السنة 25، 2019، ص09.

وسائل لغاية كبرى هي مرضاة الله تعالى وتحقيق إنسانية الإنسان في الدنيا؛ أي المنزع الذي يحول المقاصد إلى وسائل لغاية أسمى يجتمع فيها تحقيق الإنسانية في الأرض ورضى المولى سبحانه وتعالى.

وهذا المنزع التربوي تصنعه جملة من القيم والمبادئ التي لا تظهر في معاني التربية التي نعثر عليها في الثقافة الغربية؛ التي يغلب عليها تشييء التربية وجعلها وسيلة لبلوغ غايات مادية مرتبطة بالتحصيل المادي والنفعي والإعداد لكل ما هو دنيوي بحت.

ثانيا- تصنيف العلوم عند الشاطبي:

يخضع تصنيف العلوم لاعتبارات ومعايير متعددة منها: باعتبار المصدر، والغاية والهدف، طبيعة العلم. وعليه فإننا نجد أن الشاطبي يقسم العلوم إلى قسمين باعتبارين. أولهما باعتبار مصدر العلم، وثانيهما باعتبار طبيعة العلم.

والشاطبي في هذا المجال؛ يخص العلم الشرعي بالتقسيم ولا يأتي على باقي العلوم؛ فيعرفه بالقول " العلم هو الباعث على العمل الذي لا يخلى صاحبه جاريا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه طوعا أو كرها." [3]. وهو بذلك يعد من الاتجاه التأصيلي في تصنيف العلوم، والذي يقصد به الاتجاه المخالف لمنهج فلاسفة اليونان في التصنيف والمسمى بالاتجاه التقليدي؛ حيث ينطلق في تصنيفه من الشريعة الإسلامية كمصدر وأصل يؤطر منهجه ويوجهه لا من الفلسفة اليونانية. وهو يشترك في ذلك (أي في الاتجاه التأصيلي) مع عدد من العلماء منهم على سبيل المثال لا الحصر الإمام بن حزم وبن خلدون.

وعليه فإن العلوم عند الشاطبي قسمان:

1/ باعتبار المصدر: يقسم الشاطبي العلم الشرعي باعتبار المصدر إلى ثلاثة أقسام؛ فيقول في المقدمة التاسعة من الموافقات:" من العلم ما هو من صلب العلم، ومنه ما هو من مُلح العلم، لا من صلبه؛ ومنه ما ليس من صلبه ولا من مُلحه[4] ".

فأما القسم الأول: وهو صلب العلم؛ فهو الأصل المعتمد، والذي عليه مدار الطلب، وإليه تنتمي مقاصد الراسخين، وذلك ما كان قطعيا أو راجعا إلى أصل قطعي. ويمتاز عن غيره بالاطراد والعموم،

[3]- أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، بيروت، دار الفكر العربي، ج1، ص 69
[4]- (نفس المصدر، ص 77

والثانية الثبوت أي أنه غير معرض للنسخ أو الزوال، والثالثة كونه حاكما لا محكوما عليه، بمعنى كونه مقيدا لعمل يترتب عيله مما يليق به. فلذلك انحصرت علوم الشريعة فيما يفيد العمل. أي قطعي.

وأما القسم الثاني: "هو المعدود في ملح العلم لا من صلبه ما لم يكن قطعيا، ولا راجعا إلى أصل قطعي، بل إلى ظني. أو كان راجعا إلى قطعي إلا أنه تخلف عنه خاصة من تلك الخواص أو أكثر من واحدة... أي ظني. وملح العلم؛ من الملاحة بفتح الميم؛ أي هي علوم" تستحسنها العقول وتستملحها النفوس؛ إذ ليس يصحبها منفر ولا هي مما تعادي العلوم لأنها ذات أصل مبني عليه في الجملة."[5] ولا ينبني عليه عمل ولا اعتقاد.

وأما القسم الثالث: وهو ما ليس من الصلب ولا من الملح، ما لم يرجع إلى أصل قطعي ولا ظني.

2/ باعتبار طبيعة العلم ذاته: وأما باعتبار طبيعة العلم؛ فإنه يقسمه إلى قسمين:

علوم مقاصد: هي العلوم التي تمثل حقيقة الدين وجوهر أحكامه، وتتمثل في علوم القرآن، التفسير، الحديث، السيرة، العقيدة، الفقه، أصول الفقه، الفقه المقارن، القواعد الفقهية، المقاصد، علم الفروق ...أو هي العلوم المتّصلة بالاعتقاد والعمل والامتثال والتفكّر والاعتبار؛ كعلم التوحيد والعقيدة والتفسير والحديث والفقه والسلوك والجزاء والفرائض والسيرة النبوية والآداب الشرعية.

علوم وسائل: هي العلوم المساعدة على معرفة الحقيقة الشرعية وأحكامها وقواعدها وضوابطها، وتتمثل في اللغة، المنطق، الفلسفة...يقول الشاطبي في ذلك:" العلوم المضافة إلى القرآن تنقسم أقساما: قسم هو كالأداة لفهمه واستخراج ما فيه من الفوائد والمعين على معرفة مراد الله تعالى منه كعلوم اللغة العربية التي لابد منها، وعلم القراءات والناسخ والمنسوخ وقواعد أصول الفقه وما شابه "...وهي العلوم التي تُعين على دراسة علوم المقاصد وحسن فهمها، ومنها: العلوم اللغوية، وعلم أصول الفقه، وأصول التفسير، ومصطلح الحديث، تسمى أحيانا علوم وسائل، أو علوم آلة أو العلوم الصناعية.

ثالثا- ملامح المنزع التربوي عند الشاطبي من خلال منهجه في تصنيف العلوم

يظهر المنزع التربوي خاصة في تعريف العلم

[5]- نفس المصدر، ص 85)

أولا- تعريف العلم

إن المعتبر علما عند الشاطبي هو العلم الشرعي، وذلك لأنه " الباعث على العمل الذي لا يخلي صاحبه جاريا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه طوعا أو كرها." [6] ولأن " كل علم شرعي ليس بمطلوب إلا من جهة ما يتوسل به إليه وهو العمل."[7]

ويستدل الشاطبي على ذلك بالعديد من الآيات والأحاديث منها: قوله تعالى :" وإنه لذو علم لما علمناه." ينقل الشاطبي عن الطبري تفسير قتادة؛ فيقول: قال قتادة: لذو عمل لما علمناه. أي أنه عمل بمقتضى العلم الذي أتاه الله عز وجل. وينقل في السياق نفسه تفسير الطبري لقوله تعالى:" فكبكبوا فيها هم والغاوون." قال: قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم وخالفوه إلى غيره." [8] ويستدل على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: [إن في جهنم أرحاء تدور بعلماء السوء؛ فيشرف عليهم بعض من كان يعرفهم في الدنيا فيقول: ما صيركم في هذا؟ وإنما كنا نتعلم منكم؟ قالوا: إنا كنا نأمركم بالأمر ونخالفكم إلى غيره.]

وهو يعني بالعمل، كما يقول في موضع آخر:" وأعني بالعمل عمل القلب وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعا."[9] أي العمل الذي يربط ويجمع بين العقيدة والشريعة والعمل والسلوك في الواقع. يقول في ذلك:" قرن العلماء في العمل بمقتضى العلم بالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون." فقال تعالى:" شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ."(آل عمران/18) فشهادة الله تعالى وفق علمه ظاهرة التوافق، إذ التخالف محال. وشهادة الملائكة وفق ما علموا صحيحة؛ لأنهم محفوظون من المعاصي. وأولوا العلم أيضا كذلك من حيث حفظوا بالعلم." [10](ليخلص إلى أن" العلم المعتبر هو الملجئ إلى العمل به."[11]

وفي هذا التعريف نجد الشاطبي يركز على أن المعتبر علم، هو ما بعث على العمل، وقيد حامله بمقتضاه ولم يتركه على هواه؛ أي أن ثمة علاقة وطيدة يمكن وصفها بالعضوية بين العلم والعمل. وهي إشكالية ظلت تصاحب الفكر الإسلامي منذ وقت مبكر. وقد طرحت بصيغة أخرى تحت مسمى علاقة الإيمان بالعمل، وتمخضت المناقشات والسجالات بين المتكلمين عن آراء متعددة؛ لا تفصح

---

[6]- مصدر نفسه، ص 69)
[7]- نفسه، ص67
[8]- نفسه، ص62
[9]-نفسه، ص46
[10]- نفسه، ص71
[11]- نفسه، ص72

غالبيتها عن الروح التي تسكن الإسلام؛ كدين شامل يستوعب العقل والقلب. والمادة والروح والدنيا والآخرة، والعقيدة والعمل والأخلاق؛ إذ إن روح الشريعة الإسلامية وألفاظها وعباراتها؛ جميعا تنطق بما يعني أن الإيمان هو عمل من أعمال القلوب .

وإذا كان الإيمان الذي هو عمل بوجه من الوجوه، هو أحد نتائج العلم، وكان قد ثبت ذلك بالأدلة النصية وبروح الشريعة ومنطوقها أو كما يقول الشاطبي " الإيمان عمل من أعمال القلوب وهو التصديق، وهو ناشئ عن العلم" [12](ص66) فقد صح القول بتلازم العلم والعمل؛ أي أن " كل علم شرعي ليس بمطلوب إلا من جهة ما يتوسل به إليه وهو العمل." (ص67)

"ولما ثبت أن العلم هو المعتبر شرعا هو ما ينبني عليه عمل؛ صار ذلك منحصرا فيما دلت عليه الأدلة الشرعية؛ فما اقتضته فهو العلم الذي طلب من المكلف أن يتعلمه على الجملة." (ص91) وطبعا يضيف الشاطبي أن " حصر الأدلة الشرعية يعني انحصار مدارك العلم الشرعي." (ص91) وهذا ليس مقصوده كما يقول وقد بين ذلك في كتاب الأدلة الشرعية .

وهذا لا يعني أن العالم لا تقع منه المعصية؛ إنما تقع منه كما يقول الشاطبي: إما عنادا وهو الوارد في قوله تعالى:" وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ." (النمل/14) أو غفلة ودليلها قوله تعالى:" إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا." (النساء/17) والثالث أنه ربما لم يكن من أهل العلم ولا من الراسخين فيه أصلا؛ إنما ظن نفسه عالما أو ظنه الناس كذلك، وتعاملوا معه على هذا الأساس؛ فعدوه من أهل العلم. ودليله قوله عز وجل:" وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ." (القصص/50) وهؤلاء وقعوا في المخالفة بسبب ظن الجهل علما. (أنظر: ص 73-74)

وعليه:

ثانيا- كل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي:

ومعناه التركيز على مقتضى العلم، ومضامينه العملية سواء تعلق الأمر بعمل القلوب أو بعمل الجوارح، في الواقع، وترك السؤال العاري جوابه عن العمل، أو الخالي من المضمون العملي. مثل السؤال عن الأهلة أو السؤال عن الساعة؛ حيث تأتي الإجابة من عند الله تعالى بما يفيد ما يذهب

[12]_

إليه الشاطبي، وهي قوله تعالى" يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج." يقول الشاطبي:" فوقع الجواب بما يتعلق به العمل إعراضا عما سأله السائل."(الموافقات، ج1،ص 46) يدل على ذلك ما يتوجه به الله عز وجل بعد ذلك للمؤمنين ببيان أن حقيقة البر هي تقوى الله عز وجل والخوف منه والتعلق به وليس البر هو طلب أجوبة لا طائل عملي منها. ومثلها الرد عن سؤال من سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة، ومتى موعد قيامها؛ حيث كان جوابه عليه الصلاة والسلام:[وماذا أعددت لها؟] . يعقب الشاطبي بالقول:" إعراضا عن صريح سؤاله إلى ما يتعلق بها مما فيه فائدة؛ أي إن السؤال عن هذا سؤال عما لا يعني؛ إذ يكفي من علمها أنه لابد منها."(ص 47)

يقول عبد الله دراز تعليقا على ذلك" أليس هذا من باب النظر في مصنوعات الله تعالى المؤدي إلى قوة الإيمان وزيادة البصيرة بكمالات الأخلاق؟" (هامش رقم2، ص 46) ومقصوده إن السؤال عن الأهلة فيه من الفائدة العملية القلبية، وهي التأمل الذي يفضي إلى زيادة الإيمان، وهو مأمور به شرعا وآيات التأمل والتفكر في هذا المجال كثيرة؛ ويوثقها استقراء مقتضيات الأدلة في هذا الباب. ويرد دراز عن ذلك بالقول: " إن الجواب بالآية عن السؤال من الأسلوب الحكيم؛ أي إنه أليق بحال هذا السائل لما عرفه صلى الله عليه وسلم فيه. وعليه فلو أجابه صلى الله عليه وسلم بما يطلب لكان فيه فائدة عملية قلبية، إلا أنه رأى الأليق بحاله توجيه فكره إلى ثمرة من ثمرات طريقة سير الهلال، بدل بيان نفس الطريقة التي لا يفهمها هو وقد يعس فهمها على كثير من العرب، ومثله لا يناسب منصب النبوة، فالعدول لحال السائل هو اللائق بمنصب النبوة، وإن كان الجواب المطابق للسؤال قد يؤدي إلى فائدة عملية قلبية فتأمل." (الهامش نفسه)

ومع أن الشاطبي يذهب في هذا المبحث مذهبا يذم فيه ما انشغل به الفلاسفة ومن على شاكلتهم من السفسطائيين ؛ على أساس أن ما اشتغل به هؤلاء ليس من العلم في شيء وأنه لا طائل منه؛ إذ يقول:" إن تتبع النظر في كل شيئ وتطلب علمه من شأن الفلاسفة الذين يتبرأ المسلمون منهم."(ص 51) لأنه ليس من شأنهم ولا من علمهم معرفة وتفسير كتاب الله تعالى وأن المطلوب الذي به يطلب تفسير الشريعة ومعرفة أسرار القرآن الكريم هو " ألفاظ اللغة وعلم النحو والتفسير وأشباه ذلك فلا إشكال؛ أن ما يتوقف عليه المطلوب مطلوب إما شرعا وإما عقلا." (الموافقات، ص56) إلا أن ثمة منزع تربوي؛ جدير بالتأمل والتركيز عليه. وهو ضرورة الالتفات إلى عناصر مهمة في العملية التربوية، سواء من جهة المربي والمعلم أو المتلقي وطالب العلم وهي:

/1التركيز على السؤال الذي ترجى منه فائدة عملية وعلمية، ويقصد بها التعلم والعمل بالمقتضى والمضمون العملي التطبيقي؛ إذ إن مدار الشريعة كلها إنما هو حول الإيمان والعمل الصالح، وهذان لا يتأتيان ولا يحصلان بكثرة السؤال فيما لا طائل منه أو بقصد المجادلات التي يقصد بها طلب الانتصارات الأيديولوجية التي تميت القلوب وتفسد العلاقات وتكسر تاج العلم وتذهب وقاره .

/2الإجابة بما يلائم حال السائل وتوجيهه إلى الفائدة العملية، والابتعاد عما يغرق في النقاش مما لا تترتب عليه فائدة عملية، وربما يزيد من حدة العناد وتراجع الاحترام؛ ما يذهب وقار العلم، ومثله كما يشير إليه الشاطبي سؤال السائل عن موعد قيام الساعة ورده عليه الصلاة والسلام بالقول:[وماذا أعددت لها؟] يقول عبد الله دراز: " إن الجواب بالآية عن السؤال من الأسلوب الحكيم؛ أي إنه أليق بحال هذا السائل لما عرفه صلى الله عليه وسلم فيه. وعليه فلو أجابه صلى الله عليه وسلم بما يطلب لكان فيه فائدة عملية قلبية، إلا أنه رأى الأليق بحاله توجيه فكره إلى ثمرة من ثمرات طريقة سير الهلال، بدل بيان نفس الطريقة التي لا يفهمها هو وقد يعس فهمها على كثير من العرب، ومثله لا يناسب منصب النبوة، فالعدول لحال السائل هو اللائق بمنصب النبوة، وإن كان الجواب المطابق للسؤال قد يؤدي إلى فائدة عملية قلبية فتأمل." (الهامش نفسه)

3/ مراعاة حال السائل ومستواه، بما يفيد التواضع مع القدرة العلمية والمعرفية، وترك التعالي ومحاولات التميز التي يراد بها المباهاة وإظهار تميز اجتماعي ومعرفي، أو كما جاء في الحديث [ليصرف وجوه الناس إليه.]. وهذا يكثر في دنيا الناس اليوم ويترك أثرا سلبيا كبيرا ونظرة مشينة للخطاب الإسلامي الذي يفترض فيه الالتحام بهموم ومستويات الناس وأوجاعهم والتعبير عن آمالهم وآلامهم. ونلمح هذا جيدا في المقدمة السادسة عنما يتحدث الشاطبي عن ما يتوقف عليه معرفة المطلوب؛ إذ يقول:" إن ما يتوقف عليه معرفة المطلوب قد يكون له طريق تقريبي يليق بالجمهور وقد يكون له طريق لا يليق بالجمهور: فأما الأول: كما إذا طلب معنى الملك قيل أنه خلق من خلق الله يتصرف بأمره. أو معنى الإنسان فقيل له هذا الذي أنت من جنسه." (الموافقات، ص 56) ولا يقال له" كما إذا طلب معنى الملك فأحيل به على معنى أغمض، وهو ماهية مجردة عن المادة أصلا. أو يقال جوهر بسيط ذو نهاية ونطق عقلي. أو طلب معنى الإنسان فقيل له: هو الحيوان الناطق المائت" (الموافقات، ص 57)

ولما كان الأمر على هذه الحال

ثالثا- فإن كل علم شرعي فطلب الشارع له؛ إنما يكون حيث هو وسيلة إلى التعبد به لله تعالى :

فالعلم الذي لا يقصد به التعبد؛ لا يعتبر من الناحية الشرعية؛ ذلك أن الغاية من الوجود الإنساني هي عبادة الله تعالى، وكل عمل يقوم به الإنسان في الدنيا ما لم يقصد به العبادة فهو غير معتبر شرعا، يقول الشاطبي:" إن الشرع إنما جاء بالتعبد، وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام." (المصدر نفسه، ص 61) والعلم هو رأس كل الأعمال التي يجب أن يقصد بها وجه الله تعالى والتي يجب أن تتخذ وسيلة للتعبد؛ فهو كما يقول الشاطبي" وإن كان وسيلة من وجه فهو مقصود لذاته أيضا. فهو كالإيمان فإنه شرط في صحة العبادات ووسيلة إلى قبولها ومع ذلك فهو مقصود لنفسه." (المصدر نفسه، ص65)

هنا نلمح إحدى أهم القيم التربوية في فلسفة تصنيف العلوم عند الشاطبي، وهي الإخلاص في طلب العلم، وترك طلبه رياءً؛ فإنه من أعظم ما أتى على العلم الشرعي في هذا الزمن هو طلبه مراء للسفهاء ومباهاة للعلماء، وطلب مناصب وتسوية أوضاع اجتماعية ونيل مناصب دنيوية وغيرها. يسوق الشاطبي العديد من الأدلة والآيات القرآنية الواضحة الدلالة في مدح طالبي العلم تعبدا وقربة إلى الله تعالى وذم طلبه رياء؛ منها قوله تعالى:" أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ " (الزمر/09) وقوله:" أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ." (البقرة/44) وجاء في الأثر عن سفيان الثوري قوله:[إنما يتعلم العلم ليتقى به الله، وإنما فضل العلم على غيره لأنه يتقى الله به.] ومعناه: أنه ما لم يقصد به وجه الله فقد انتفت عنه وصف العلم وإن حمل صاحبه اسم العالم في الدنيا وبين الناس. وقد ساق الشاطبي أحاديث وآثار كثيرة في هذا الباب، والتي تظهر لنا ذلك المنزع التربوي المهم عنده. (أنظر: الموافقات: المقدمة السابعة: ص60_66)

رابعا- وأما أقسام العلوم، وما يجب أن يؤخذ منه وبأي طريق وكيفية:

ففيه منزع تربوي غاية في الدقة، ويجب الاهتمام به وإيلائه ما يستحق من الإيضاح؛ حيث يقسم الشاطبي العلم الشرعي إلى ثلاثة أقسام: أولهما يسميه صلب العلم، وثانيهما ملح العلم، وثالثها ما هو غير دارج لا في صلب العلم ولا في ملحه؛ فيقول في المقدمة التاسعة: " من العلم ما هو من صلب العلم ومنها ما هو ملح العلم. ومنها ما ليس من صلبه ولا من ملحه."(ص 77)

لم يكن مقصد الشاطبي بتقسيمه العلم إلى ثلاثة أقسام، مقصدا تعليميا فقط؛ بقدر ما كان مقصدا تربويا أيضا يريد به ما ينبغي على طالب العلم أن يتحلى به، وكيف يجب أن يأخذ العلم، وما يجب أن يأخذه على أنه علم وما هو ظن، وفيما يجب أن ينفق الأعمار وتوجه إليه الجهود وما هو من

الذي لا ينبغي أن تصرف إليه الجهود ولا أن توجه إليه الاهتمامات وما الذي به يحسب الرجل عالما وما به يكون متطفلا أو يحسب نفسه عالما وما هو بالعالم. وهكذا يمكن القول أن الشاطبي يزود التربية الحديثة في العالم الإسلامي برؤية واقعية؛ تأخذ بعين الاعتبار الوقت المحدود والعمر المحدود والحاجة الاجتماعية والمقاصد الشرعية .

فأما القسم الأول؛ فهو علم المقاصد الذي يجب أن توجه إليه جهود طالبي العلم؛ " فهو الذي عليه مدار الطلب وإليه تنتهي مقاصد الراسخين. وذلك ما كان قطعيا أو راجعا إلى أصل قطعي" (المصدر نفسه، ص77) أي طلب ما يبنى عليه عمل وتحفظ به الشريعة ويحصل به العمران.

إن هذا العلم هو المحفوظ والدال عليه قوله تعالى: " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون." فهي الآية التي فيها جماع الشريعة المحمدية، والتي يعبر عنها الشاطبي بأصل العلم؛ وبناء عليه فإن علم المقاصد؛ يعني بوجه من الوجوه تحقيق حفظ كتاب الله تعالى وحفظ شريعته؛ فهو العلم الذي لا ينبغي أن يتخلف عن طلبه أحد من المسلمين، ولا يقصد هنا بالتخلف عنه طلب علمه والرسوخ فيه بقدر ما يعنى به تحقيقه والتدين به بوصفه أصل الشريعة وما تقوم عليه. والحفظ إنما يكون فهما وتنزيلا؛ وهو أول ما نحن مطالبين بتحصيله.

وأما القسم الثاني؛ فهو الذي يسميه مُلَح العلم، ويعرفه بالقول:" هو المعدود في ملح العلم لا في صلبه ما لم يكن قطعيا ولا راجعا إلى أصل قطعي، بل إلى ظني." (ص 79) وليس يهمنا في المقام بخصوص هذا القسم الذي طريق العلم هو الظن لا القطع سوى حال المتعلم والعالم في حمله وتحصيله وطلبه. وفي الأمثلة التي يسوقها الشاطبي ما يكشف البعد التربوي في هذا التقسيم والتصنيف؛ من خلال الأمثلة التي يسوقها، ومنها:

" الحكم المستخرجة لما لا يعقل معناه، على الخصوص في التعبدات؛ كاختصاص الوضوء بالأعضاء المخصوصة والصلاة بتلك الهيئة من رفع اليدين والقيام والركوع والسجود وكونها على بعض الهيئات دون بعض واختصاص الصيام بالنهار دون الليل، واختصاص الحج بالأعمال المعلومة وفي الأماكن المعروفة وإلى مسجد مخصوص إلى اشباه ذلك مما لا تهتدي العقول إليه بوجه؛ فيأتي بعض الناس فيطرق إليه حكما يزعم أنها مقصود الشارع من تلك الأوضاع وجميعها مبني على ظن وتخمين." (المصدر نفسه، ص 80)

ففيه يذهب صاحبه مذهب المتكلف في طلب العلم، ويحسب أن ما يقدمه للناس هو من قبيل العلم وما هو بالعلم؛ إما أنه يستغل شغف الناس والعوام في معرفة أمور دينهم فيستغفلهم ويعطيهم أمور لا تفيد ولا يبنى عليها عمل، أو أنه يتقصد التنطع وإبراز ما يحسبه قدرات عقلية وحكمية في الفهم والتفسير؛ فيذهب إلى تفسير ما لا يفسر عقلا من الأمور خاصة في العبادات، فهذا لا يعطي علما بقدر ما يزيد في إبعاد الناس عن العلم الحقيقي وربما شوه الدين والعلوم الدينية. وهو كثير اليوم؛ إذ المتابع اليوم يلحظ ذلك الصراخ الذي يملأ الفضائيات ومواقع التواصل لنحسبه علما دينيا وما هو بالعلم؛ إنه يستند إلى ظن أو تخمين لا إلى القطع أو الأصل. ومن ذلك تلك التفسيرات التي يزعم أصحابها من أهل التخصصات العلمية البعيدة كل البعد عن المعرفة الدينية كالفيزيائيين والأطباء والصيادلة والأدباء؛ أنهم وصلوا إلى ما لم يصل إليه أهل العلم الشرعي؛ فيتنطعون في تفسيرات لا تخضع لشروط وضوابط تفسير النص القرآني أو فهم مقاصده، وذلك كثير .

" ومنه التأنق في استخراج الحديث من طرق كثيرة لا على قصد طلب تواتره، بل على أن يعد آخذا له عن شيوخ كثيرة ومن جهات شتى. فالاشتغال هنا من الملح لا من صلب العلم" (المصدر نفسه، ص 81)؛ كأن يتفاخر بأسماء وعدد المشايخ والعلماء؛ الذين درس عندهم أو الأماكن التي درس فيها أو الكتب التي أصدر والملتقيات التي أنجز وما إلى ذلك...، لأن الدين إنما ينصره الإخلاص والصدق مع الله عز وجل في العمل وإن قل. يسوق الشاطبي رواية خرجها بن عبد البر أن حمزة بن محمد الكناني قال: خرجت حديثا واحدا عن النبي صلى الله عليه وسلم من مائتي طريق، أو من نحو مائتي طريق. قال: فداخلني من ذلك من الفرح غير قليل وأعجبت بذلك؛ فرأيت يحي بن معين في المنام، فقلت له: يا أبا زكريا قد خرجت حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من مائتي طريق. قال: فسكت عني ساعة. ثم قال: أخشى أن يدخل هذا تحت " ألهاكم التكاثر". (المصدر نفسه، ص 81_82) ثم يردف الشاطبي بالقول:" لأن تخريجه من طرق يسيرة كاف في المقصود منه."(المصدر نفسه، ص 82)

ثمة مقصد تربوي جدير بأن ننتبه إليه، وإن كان مقصد الشاطبي كما رأينا هو بيان صلب العلم الذي ينبني عليه العمل والملح الذي لا ينبني عليه عمل، وهو أن ينتبه طالب العلم إلى ضرورة التركيز على ما فيه فائدة، ولا يضيع الجهد فيما لا طائل منه؛ كأن يذهب بعلمه إلى الانتصار للأيديلوجيات والأشخاص والمصالح الضيقة؛ فإن مثل هذا المنزع يقتل المواهب ويذهب وقار العلم ويبدد الجهد فضلا عن سوء العاقبة يوم القيامة كما تشير إليه العديد من النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ومنه المختلف حوله، والذي لا توجد ثمرة ولا أثر عملي له؛ فإن البحث فيه أو طلب علمه غير مرغب فيه: كما يقول الشاطبي:" المسائل التي يختلف فيها فلا ينبني على الاختلاف فيها فرع عملي إنما هي من ملح العلم. أو هي خارجة عن صلب العلم." (المصدر نفسه، ص 82) وهنا لطيفة تربوية جديرة بأن يأخذ بها طالب العلم، وهي ترك تتبع المختلف حوله من الأمور؛ أولا لأنه لا ينطوي على ثمرة عملية كما يقول الشاطبي. وثانيا لأنه مما يبعث الأحقاد والتباغض؛ خاصة وأن الكثير من الدوائر والأشخاص والمراكز اليوم تتقصد البحث في مواطن الاختلاف بين المسلمين لاستثمارها في التفريق بين المسلمين، خاصة في البيئات التي تتشكل من إثنيات طائفية ومذهبية وعرقية ولغوية وما إلى ذلك... وهي كثيرة في المجتمع الإسلامي .

وهذا السعي وراء المختلف حوله يعتبره أحد الباحثين استدعاء للتاريخ المرضي والسيء في التاريخ الإسلامي (محمد نبيل الشيمي، الطائفية ,وآثارها التدميرية على نسيج المجتمعات عامة، المركز الديمقراطي العربي، 21 نوفمبر 2015، https://democraticac.de/?p=22853) فالمعرفة الإسلامية فيها من الغث بقدر ما فيها من السمين، ويمثل المختلف حوله ذلك الشق الغث الذي يجري استغلاله بصورة رهيبة ويجري جر طلبة العلم إلى الانشغال به ومن ثمة إغراق البيئة الإسلامية في المزيد من الصراعات والحروب لمصلحة دول وجهات أخرى .

ومنه الأخذ من العالم أو الشيخ لمجرد حسن الظن؛ لأن حسن الظن لا يغني في بناء علم ولا ينفع في الاستدلال، وحجة الشاطبي في ذلك؛ أنه ربما لا تصدق أفعاله وسلوكاته ومواقفه في الواقع مذهبك في حسن الظن به. وربما قصد الشاطبي بذلك ولا ريب ليس إذهاب حسن الظن بالناس كسلوك وخلق ينبغي أن يتحلى به المسلم ولا التقليل من أهميته؛ إنما يقصد حسن الظن الذي يبنى عليه العلم إلى أن يثبت العكس؛ أي إلى أن تظهر سلامته مما يقدح في سلوكه أو أخلاقه. يقول في هذ الصدد:" الاستدلال على تثبيت المعاني بأعمال المشار إليهم بالصلاح؛ بناء على مجرد تحسين الظن [...] فإذا أخذ ذلك بإطلاق فيمن يحسن الظن به فهو عندما يسلم من القوادح لأجل ميل الناس إلى من ظهر منه صلاح وفضل، ولكنه ليس من صلب العلم." (المصدر نفسه، ص83)

يعدد الشاطبي المسائل التي هي من ملح العلم، ويوجه إلى ضرورة تركها وعد الاشتغال بها، وما ذلك إلا تصويبا وإعدادا للمسلم الذي يحمل أمانة العلم الشرعي الإعداد الروحي والمعرفي والاجتماعي الذي يتطلبه العلم الشرعي. يقول الشاطبي:" فهذه أمثلة ترشد الناظر إلى ما وراءها حتى يكون على

بينة فيما يأتي من العلوم وما يذر؛ فإن كثيرا منها يستفز الناظر استحسانها ببادئ الرأي؛ فيقطع فيها عمره وليس وراءها ما يتخذ معتمدا في عمل ولا اعتقاد؛ فيخيب في طلب العلم سعيه."(ص85)

القسم الثالث من العلوم :

وهو ما ليس من صلب العلم ولا من ملحه؛ لأنه غير ثابت ولا يرجع إلى أصل قطعي ولا ظني. ويبرز البعد التربوي أو المنزع التربوي في أن طلب هذا القسم من العلوم هو لمجرد التنطع ومخالفة المعهود أو المألوف، وخالف تعرف أو كما يقول:" وإن مال قوم فاستحسنوه فطلبوه فلشبه عارضة، فربما عده بعض الأغبياء مبنيا على أصل فمالوا إليه من ذلك الوجه, وحقيقة أصله وهم وتخييل لا حقيقة له. مع ما ينضاف إلى ذلك من الأغراض والأهواء؛ كالإغراب في استجلاب غير المعهود والجعجعة بإدراك ما لا يدركه الراسخون والتبجح بأن وراء هذه المشهورات مطالب لا يدركها إلا الخواص وأنه من الخواص وأشباه ذلك مما لا يحصل منه مطلوب." (المصدر نفسه، ص 86)

وإن كان الشاطبي يذهب بالتلميح، بل التصريح في هذا الباب إلى الباطنية والسفسطائيين الذين يذهبون إلى القول بأن وراء كل ظاهر باطن يكشفه الإمام، ولا قبل لغيره بكشفها؛ حيث يقول:" ومثال هذا القسم ما انتحله الباطنية في كتاب الله تعالى من إخراجه عن ظاهره، وأن المقصود وراء الظاهر ولا سبيل إلى نيله بعقل ولا نظر. وإنما ينال من الإمام المعصوم. [...] ويشمل هذا القسم ما ينتحله أهل السفسطة والمتحكمون، وكل ذلك ليس له أصل ينبني عليه ولا ثمرة تجنى منه فلا تعلق به بوجه." (المصدر نفسه، ص 86)

رابعا- من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقق به أخذه عن أهله المتحققين به على التمام والكمال:

ههنا منزع تربوي؛ مفاده أن العلم، ومقصوده ليس العلم الضروري المغروز في الفطرة والذي يخلق مع الإنسان، بل العلم المكتسب من طريق النظر والتبصر؛ أو كما قال الشاطبي" ما يفتقر إلى نظر وتبصر ويحتاج إلى معلم. "(ص91) لا يؤخذ إلا من منابعه، ومن سماهم أهله المتحققين به على وجه التمام والكمال، وما ندري ماذا يريد بالمتحققين بالعلم بالتمام والكمال.

فأما المتحققون بالعلم؛ فهم الرجال؛ الذين هم مفاتيح العلم بلا شك.(ص92) والذين يشترط في أحدهم أن يكون" عارفا بأصول العلم وما ينبني عليه (أي ذلك العلم) قادرا على التعبير على مقصوده فيه، عارفا بما يلزم عنه، قائما على دفع الشبه الواردة عليه فيه." (ص 92)

وأما مراده بالتحقق به بالتمام والكمال؛ فإن الظاهر عنده أن من تحقق فيهم العلم بالتمام والكمال هم السلف الصالح من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وتابعيهم وتابعي تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين. يقول الشاطبي:" فإذا نظرنا إلى ما اشترطوه وعرضنا أئمة السلف في العلوم الشرعية؛ وجدناهم قد اتصفوا بها على الكمال.غير أنه لا يشترط السلامة عن الخطأ البتة." (ص 92) مع الاعتراف بأن ذلك لا يعني عصمتهم وخلو ذممهم من الخطأ.

خاتمة

لقد حاولت أن أتأمل المنزع التربوي للشاطبي؛ من خلال مبحث تصنيف العلوم، ومنهج الرجل في ذلك، ولذلك جاءت المحاولة، وكأنها قراءة في أهم مصنف جمع منهج الشاطبي في تصنيف العلوم، وهو الجزء الأول من كتاب الموافقات.

إن الشاطبي، وإن عرف اشتغاله بعلم أصول الفقه وعلم المقاصد وعلم تصنيف العلوم، فإن عمله في تصنيف العلوم؛ يستبطن حمولة تربوية أصيلة؛ تستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وتقدم للقارئ نظرية تربوية إسلامية متميزة؛ تبرز الوجه الحضاري والإنساني للحضارة الإسلامية.

يركز الشاطبي على الإنسان؛ بوصفه المعني الأول بحمل العلم بالمعنى الذي يتضمن معاني العبادة والخلافة والإعمار والشهود، فقها وتنزيلا في الواقع.

العلم في الرؤية الإسلامية، كما يظهر عند الشاطبي، ليس ترفا؛ لذلك يجب على المعنيين بمسائل التربية الاهتمام الجدي بالأولويات؛ سواء من حيث طبيعة المادة العلمية المقدمة، أو الملاءمة بين السن والمادة أو من حيث اختيار المعلم المخلص والصادق.

ثمة ذهولا متعمدا من قبل القائمين على التربية في البلاد العربية والإسلامية، وتجاوز ظاهر للأبعاد والمضامين التربية الثاوية في التراث الإسلامي؛ سواء عند الشاطبي أو غيره من العلماء وفي كل الحقول المعرفية الإسلامية.

قائمة المصادر والمراجع:

الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة ، تحقيق: عبد الله دراز، بيروت، دار الفكر العربي، ج1.

الملكاوي، فتحي حسن ، نحو حضور فاعل للرؤية الإسلامية في الإصلاح التربوي المعاصر، إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، ع 98، السنة 25، 2019.

ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ج8.

محمد نبيل الشيمي، الطائفية وآثارها التدميرية على نسيج المجتمعات عامة، المركز الديمقراطي العربي، 21 نوفمبر 2015، https://democraticac.de/?p=22853